في اي طريق تُساق الحضارة؟

الازمة الاقتصادية : بواعثها واحتمالاتها الاخيرة

لاسماعيل مظهر

تمهيد

لكل عصر من العصور ، حتى العصور التي ساد فيها الرخاء المالي وتيسرت الارزاق ، ازماته الروحية . غير ان للازمات الروحية مبتدأ وخبراً كالجملة الصحيحة في تركيب الكلام. ولقد بدأت الازمات الروحية العنيفة تتكون في بداءة العصر الانتاجي ، وظهرت في صور عديدة أهمها انقسام الجماعات الى شطرين كبيرين ، العمال واصحاب الاموال ، وكادت الآن تصل الى النهاية او بالاحرى كادت يكون لها خبراً — ينذر الاجتماع الانساني بانقلاب خطير في نظمه الاقتصادية والمدنية.

وللازمات الاقتصادية ازمات روحية تصحبها . حتى ان من شأن الازمات الاقتصادية ان تحدث ازمة روحية لها مظهر خاص . غير ان العوامل الروحية في الازمة العالمية الحاضرة قد بلغت حداً لن يفلت معهُ النظام الحاضر من انقلاب خطير . وهذا امر ينبغي على كل باحث في الازمة الاقتصادية واحتمالاتها أن لا يخرج عنهُ من حساب التقدير النظري الذي يقدره للنتائج التي سوف تجر اليها الازمة الحاضرة

سوف ينتهي النظام الرأسمالي من حيث بدأ . بدأ بالانتاج الصناعي وسيحطمه الانتاج الصناعي . بدأ باحتراع الآلات وسوف تقضي عليهِ الآلات . بدأ باستجماع رؤوس الاموال وسوف تقتله رؤوس الاموال . بدأ بالقضاء على الوحدات الصناعية الصغيرة التي كانت تنتج على قدر استهلاك الاسواق ان لم يكن اقل ، وينتهي بوحدات صناعية كبيرة ، انقلبت بعد الحرب العالمية من المصنع الكبير الى أمة صناعية تختص بها كل أمة من الأمم . فان معاهدات السلم الحربي وضعت في الحقيقة قواعد الحرب الاقتصادية . فالحواجز الجمركية احدى نتائج تلك المعاهدات . وادمان التسليح نتيجة اخرى . اما كبرى النتائج فتنحصر في ان معاهدات السلم خلقت ممالك جديدة هي عبارة عن وحدات سياسية مستقلة استقلالاً تاماً ، ولكنها لا تكون وحدات اقتصادية مستقلة . فبولونيا مثلاً وحدة سياسية كاملة الاستقلال ، ولكنها لم تكون وحدة اقتصادية بعد . لان نظامها المالي كان متعلقاً بنظام ثلاث دول هي روسيا والمانيا والنمسا . فبدأت تسعى الى نيل هذا الاستقلال المالي فاخذت تقيم الحواجز الجمركية وتشجع

الصناعات الوطنية الاهلية. فترتب على ذلك نتائج ثلاث. الاولى زيادة الانتاج في بولونيا. الثانية قلة الاستهلاك والصادر، لان غيرها حذى بالضرورة حذوها في الانتاج. الثالثة فقدان متاجر العالم سوقها في بولونيا للحواجز الجمركية التي رفعتها حولها. وكذلك الحال اذا نظرت في كل الممالك الحديثة التي خلقتها معاهدات السلم. وهذا «الاحتكار» لا بد ان يقابل من بقية دولات العالم القديمة باحتكار مثله. وحتى نحن في مصر بدأنا نحتكر اسواقنا تحت ضغط السيل الجارف في اوربا. فكأن العالم كله يناصر الآن عوامل الازمة الاقتصادية، ويقوي في النفوس بواعث الازمات الروحية. وكأن المدنية تعود الى الصورة القديمة التي نشأت منها الحضارة الحديثة. تعود الى نظام الوحدات الانتاجية المستقلة. ولكنها بعد ان كانت في «البيت» اصبحت في المعمل ومن المعمل الى مجموع معامل تشملها مملكة واحدة، مستقلة استقلالاً سياسيًّا، ولكنها غير مستقلة استقلالاً اقتصاديًّا. وفضلاً عن هذا فهي تنتج اكثر مما تستهلك وتكدس البضائع والاموال، في حين ان البضائع لم تصنع الا لتستهلك، والاموال لم تكن الا للتعامل

كيف نشأت الحضارة الرأسمالية

جرت عادة الباحثين ان يقسموا تاريخ نشأة النوع البشري الى عصور يمتاز كل عصر منها باستعمال مواد مخصوصة يدل استعمالها على ان الانسان قد بلغ طوراً خاصًّا من الرقي والنماء. ولقد ارضى هذا التقسيم كل الباحثين في نشأة الانسان وتكوين الشعوب، لان ذيوع استعمال مادة من المواد قد اتخذ دليلاً على ان الانسان قد بلغ من الرقي مبلغاً يقاس به مقدار تمدنه واتساع أفق معرفته وثقافته. ومع هذا فان انتقال الانسان من عصر استعمال الحجر المخشن الى العصر الظراني القديم ومنه الى العصر الظراني الحديث، ومنها الى استعمال النحاس ثم البرونز ثم الحديد، ولو انه يدل على ان الانسان استطاع ان يتقدم في اطوار متمايزة محدودة، فان هذا التقدم لا يمكن ان يعتبر تطوراً اساسيًّا عنيفاً في الحالات التي قامت عليها الحياة البشرية. وظلت الحياة البشرية قائمة على الاسس التي قامت عليها منذ ان درجت جماعات الانسان البدائية فوق هذه الارض وعلى مدى الازمان التي تقلب الانسان خلالها في حجر المدنيات المتعاقبة. ولقد يظهر الامر عجيباً مذهلاً اذا انت عرفت ان الانسان ظل يعيش ويعمل على نفس القواعد البدائية التي وضعها اسلافه منذ اقدم العصور التي يرجع اليها تاريخه الطويل حتى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يستكشف خلال تلك الدهور الطويلة من استكشاف استطاع به ان يؤثر في الرابطة التي تربط الانسان ببيئته الطبيعية. فمنذ بداءة العصر الظراني قاوم الانسان الطبيعة بقوة عضلاته، وحاول ان يذللها بمهارته مع الاستعانة عليها بالحيوانات التي استطاع ان يؤلفها حتى ذلك العهد. وظل الانسان على هذه الحال حتى شارف القرن الثامن عشر على الانتهاء

غير ان حادث عظيم وقع اذ ذاك في حياة الانسان فنكث فتله وقلب آيته وغيّر موقفه من الطبيعة تغييراً كلياً . فقد استكشف او بالاحرى اخترع « الآلة » التي تدار بالقوة الذاتية « اي الاتوماتيكية » . وان شئت فقل انهُ استطاع ان يبعث من العدم قوات جديدة خارجة عن قوة عضلاته ومن قوة الحيوانات التي كان يستخدمها في العصور الاولى ولم يقف الامر عند هذا . بل انه استطاع ان يبعث من تلك الآلات « قوات » عظيمة لا تعرف حداً تقف عنده ولا نهاية تنتهي اليها . وامكنه مع هذا أن يخضع هذه القوات لا لقوات تماثلها، بل لافراد من نوعه، واذا شاء فلارادة فرد واحد ، وتسنّى له ان يحبس هذه القوات في اقل فراغ ممكن من المادة وسخّرها لارادته المطلقة تسخيراً

وكان الانقلاب عظيماً . فان علاقة الانسان ببيئته الطبيعية قد تغيّر تغيراً كلياً . فقد تبدّل من الضرورة التي كانت تدعوه الى مغالبة الطبيعة ومجالدتها بقوة عضلاته ، عزلة بعيدة عن الطبيعة فيقف دونها ينظر نظر المتفرج الى آلة مستعدة قد استخزنها قدراً عظيماً من القوة تتحرك كيفما شاءت ارادته، فيجذب ذراع حديدي او ضغط على زر بسيط تدوي الآلات دويها الدائم وعلى غير انقطاع . وهذا انقلاب لم يشهده الانسان في كل ادوار تاريخه القديم والحديث . ولم يبلغ اي انقلاب انساني من الأثر مبلغ هذا الانقلاب . وحتى اختراع المطبعة واستكشاف المفرقعات . فانها من المخترعات التي غيرت من علاقة الانسان بالانسان ، ولكنها لم تؤثر في علاقة الانسان بالطبيعة اقل تأثير

ولكن كيف استطاع الانسان ان يتخلص من آثار النظام الاقطاعي الذي قمع كل فكر وتكبّل بكل حافزة من حوافز الهمة الانسانية ، ليفوز في النهاية بالحرية التي مكنته من ان يعيش لنفسه فيؤسس الصناعات ، ويخترع في النهاية تلك الآلات التي كونت وجهاً جديداً من اوجه المدنية التي لم يعهد هذا الانسان مثيلاً من قبل ؟ والواقع ان الانسان بدأ يكوّن النظامات التي أدّت الى تحريره منذ أن أخذت الامبراطورية الرومانية في الانحلال ثم السقوط

استولت الامبراطورية الرومانية على اطراف العالم المعمور او بالاحرى المعروف حتى ذلك العهد . فعمرت نواحي مقفرة في اوربا والشرق وكانت مظاهر العمار والتمدين على اروعها فيما جاور روما من بلاد ايطالية وفيما جاور ايطاليا من اوربا . فمهدت السبل وانشئت الطرق العسكرية في نواحي الغال وفرنسا ، وامتدت الى جبال الألب حتى سهول ايطاليا الشمالية . وبليت المدائن العظيمة على ضفاف الرون والسين ، واقيمت الصروح المائية العظيمة واقيمت معاهد العلم والمكاتب العامة والهيا كل . ولقد تناول التمدين الروماني كل ناحية من نواحي الشعوب التي استتبت عليها روما حتى اذا اصل بلاد الغال وغيرها من البقاع الاوربية التي نشر فيها النفوذ الالماني ، كانوا يفخرون بانهم رومان لحماً وعظماً ودماً

غير انهُ فيما وراء نهر الرين كانت تعيش قبائل من البرابرة المتوحشين كان افرادها كثيراً مايعبرون النهر جماعات كبيرة وينهبون ماتصل اليه ايديهم من مغاني تلك البلاد التي كانت حصارتها ماثلة أمامهم على ضفة النهر الاخرى . غير ان التخوم كانت تحميها سلسلة متصلة من المعسكرات الرومانية . ولكن هؤلاء «الالمان» لم تكن لديهم من عدة السلاح والدروع ما يستطيعون به الاستعواء على القبائل الرومانية الكاملة العدة التامة الدربة . وعاش اهل الغال كما عاشت بقية الشعوب التي ظلّلها النفوذ الروماني في أمن ودعة ، ففقدوا مع الزمان صفاتهم الحربية ، مكتفين بان يؤدوا الجزية لروما ، ما دامت روما قائمة على حراستهم والدفاع عن تخومهم ان تجتاحها قبائل الالمان المتوحشة .

ولكن جاء عصر اخذت يد التبديد تمتد فيه الى الجزية التي كانت تؤديها الشعوب المحكومة لروما . فلم يكن يرتدُّ منها شيء الى تلك البلاد لينفق على التعمير والانشاء او الانفاق على القبائل العسكرية التي كانت تقوم بمهمة الدفاع عن اطراف الامبراطورية . ونضب بعد ذلك معين الذهب الذي كان يسيل الى روما من نواحي الامبراطورية الشاسعة الاطراف .

فأخذ الفقر يتبوء بقوته ويشرف بهامته البغيضة على حكومة روما ، ومع هذا ظلت حكومة روما على اسرافها وتبذيرها المعروف . فالحرس «البريتوري» كان يجب ان يتناول مرتباته . والعاطلون الذين كانوا يملأون شوارع روما من الغوغاء واهل اللهو ، كانوا لابدَّ من ان يطعموا خبزاً ولحماً شواء ، ويستثيروا باغلى انواع الزيوت ويلهوا في الحمام المراقص ويتسلوا بمختلف المشاهد . كما هي الحال الآن تماماً في اكثر ممالك العالم المتمدين . فصمدت حكومة روما الى الضرائب تزيد منها وتستزيد ، واضطرَّ حكام الاقاليم بحكم القوة ان يزوّدوا روما بمبالغ من المال كبيرة تلقاء احتفاظهم بمناصبهم وبقائهم فيها اسواط عذاب على الناس . كما هي الحال تماماً في بعض نواحي العالم الآن . واخذت التهم تلقى جزافاً على الاغنياء لتكون وسيلة الى مصادرة املاكهم . واخذ البوليس الحكومي يجمع الغلال من الغيطان بالقوة صداداً لضرائب الحكومة الفادحة . فخربت المزارع الفاخرة واقفرت الغيطان العامرة ، لان الناس قد عرفوا بالتجربة انهم انما يعملون لغيرهم ، وان ثمار مجهودهم قد يؤخذ منهم في اي وقت من غير سابق انذار ومن غير حق . واخذت مظاهر الخراب تبدو شيئاً بعد شيء . فنبتت الحشائش الطفيلية في مزارع القمح المهجورة ، وخربت المدن وبدأت النباتات تنمو في طرقها ومسالكها وفوق جدرانها وهياكلها ، وأخذت الوحدات الرومانية التي كانت تقوم بحراسة بلاد الغال من غزو البرابرة ، تنحلُّ وحدة بعد اخرى ، ثم اخليت من الجنود ، لان الحكومة تجزت من ان تحتفظ بالفيالق التي كانت تحرس شواطىء نهر الرين من غزو « الالمان » . ولم تكد تخلو المعسكرات من الجنود الرومانية ، حتى انهمر في اثرها سيل عرم في محاربة البرابرة ، يجتاحون

المدنية التي أقامها قيصر ، ويعيشون بالقوانين المقدسة التي شرعتها روما العظيمة

وكانت الجيوش القارية مكونة من رجال احرار ، لا هم بالجند المنتظم ، ولا هم بالعبيد . بل كانوا محاربة تتبع ضابطاً مغامراً او رئيس قبيلة، لها في الحرب علمها وتقاليدها. وكانت الغنائم التي تستولي عليها كل جماعة منهم ملكاً لها وتقسم بين افرادها على قاعدة مرعية . وكانت حصة الملوك من الغنيمة كبيرة ، ولكنهم ما كانوا يحصلون على اكثر من حصتهم فيها . وكان المحاربون الذين لا يرتدّون بعد الغزو الى بلادهم الاصلية، يفضلون البقاء في الارض المغزوة ، يقسمون الارض فيما بينهم كما يقسمون الاسلاب الاخرى من مواشٍ وعبيد وذهب وحلي وأوانٍ وأبسطة وأثاث وغير ذلك. وكان جزء كبير من الارض يبقى من نصيب الملك. واجزاء اخرى تقسم بين القواد والضباط على نسبة عدد الرجال الذين يتبعونهم الى ميدان القتال. وكل جندي ينال من الارض حصته بالتساوي مع غيره من الجنود . غير ان الجيش المحارب ولو انه يكون في هذه الحالة قد انحلّ ، الاّ انه لم يمح من الوجود. فان افراده يبقون خاضعين للقانون العسكري. وكان القواد او «البارونات» يبقون تابعين أو خاضعين لسلطة الملك اذا هو دعاهم الى القتال ، كما كان الجنود يظلون خاضعين لقوادهم وضباطهم . وكثيراً ما كان يحدث ان يعطي الملك او البارون قطعاً من الارض الى المقربين منهم او صنائعهم بشروط تشابه شروط التبعية الحربية التي شرحناها. ثم تغير الحال بعد ذلك فاستبدلت التبعية الحربية بقيمة من المال تدفع سنوياً كبدل حربي تلقاء الانتفاع بالارض وبذلك بدأ نظام «الايجار» يدخل في النظام المدني، ونظام الايجار هو الذي كوّن طبقات البورجوا والبروليتارية ، كما عرف في المباحث الاشتراكية الحديثة

ولما غزا الالمان نواحي بلاد الغال الفسيحة واستوطنوا اطرافها، اخذوا يحصنون القصور القديمة أو بعض المدن الصغيرة ويتخذون منها معاقل يحتمون بها ويستجمعون فيها ثرواتهم. وليس لنا من شأن هنا بشرح الحياة العائلية التي كانت تحياها البارونات داخل هذه القصور ولا أن نتمادى في شرح حال الفقراء من المزارعين . بل شأننا يرجع الى الكلام في تأسيس نظام «الايجار» وهل له من علاقة بنشوء الصناعات اليدوية والصناع . والذي يتبادر الى الذهن ان قيام نظام «الايجار» في أوروبا كان له أثر مباشر في نشوء الصناعات وظهور فكرة الصناع. لان المتقبل الذي يكون المستأجر لقطعة من الارض اكثر حرية فيها مما لو كان تابعاً تبعية حربية لرئيس حربي . وانهُ في هذا الجو يمكن ان تنشأ الصناعات بازدياد توزع الثروة والاخلاد الى حياة مدنية اكثر استقراراً من الحالة الحربية . ولكن الحقيقة على الضد من هذا . ففي عصر الجمهورية الرومانية وفي عصر الامبراطورية، انحصرت الصناعات، رقيمة ووضيعة، في يد العبيد . فكانت كل الحاجيات التي يحتاج اليها في القصور تصنع في هذه القصور وبيد صناع من العبيد مرنوا عليها واتقنوها. غير انهُ قبيل الغزو الالماني لنواحي الامبراطورية الرومانية

نشأت طبقة من الصنّاع على جانب عظيم من المهارة وحبّ الاتقان ، يحتمل ان يكونوا من سلالة العبيد الذين تحرروا من يد اسيادهم الرومان في عصر الانحلال . غير ان المؤرخين ، وذوي الرأي منهم على الاخص لا يسلمون بهذا الاحتمال تسليماً مطلقاً ، وان كانوا يرجحونه مع ميل شديد الى القول بأن نشوء الصناعات والصناع صفحة قاتمة في تاريخ اوربا . ونشوء الصناعات اليدوية وظهور الصانع من ناحية ، وتثبيت مبدأ الايجار الزراعي من ناحية اخرى ، تكوّنت المدنية الحديثة وقامت على صورتها الرائعة الهيئة حتى اختراع الآلة الميكانيكية في اواخر القرن الثامن عشر ،

ولا شك مطلقاً في ان كل الانقلابات التي انتابت المدنية الحديثة والتي رويدنا طرفاً منها ، لا تزن شيئاً بجانب الانقلاب الكبير الذي تناول مسألة «الانتاج» و«العمل» ، ذلك الانقلاب الذي يسمى عند مؤرخي العصر الحديث «بالثورة الصناعية» والسبب في هذا انه انقلاب تناول اعماق الحياة البشرية . فان اثره لم يقتصر على حياة العمال وحالات الصناعة واساليب الانتاج ولم يقف عند حد تغيير المنتوجات التي كان يستعملها الانسان ، وطبيعة البيئة واخلاق العامل ، بل تعدّى كل ذلك الى دولاب الجماعات انفسها ، اذ احدث نظامات جديدة اصبحت على اعظم جانب من الخطورة للحياة الانسانية ، وقضى على نظامات قديمة سايرت خطى التقدم الانساني منذ فجر التاريخ ، فكان هذا الانقلاب بطبيعته اكبر ثورة اجتماعية وقعت للانسان . وبدأت في الافق سلسلة من المؤثرات يتلو بعضها بعضاً على التالي ، وليس يعلم احد الى أي غاية سوف تؤدي بأبناء آدم وحواء

انحصر الانتاج الصناعي قبل «الثورة الصناعية» في ايدي الافراد . وكان المنتج صانعاً مستقلاً ويعني به صانع يستطيع ان يخرج من مقدار من المادة الخام سلعة من السلع . كما كان توزيع العمل مقصوراً على مقدار ما يحتاج اليه كل صانع من مهارة غيره في صنع المادة التي تنحصر فيها صناعته . وكان اكثر المنتجين ، او كان عدد كبير منهم هو الاغلبية المطلقة من الصناع المشتغلين الذين يخرجون من بين ايديهم مصنوعات كاملة يبيعونها مباشرة او بواسطة السماسرة . فكانوا يعملون تحت تأثير حالات هم اصحاب الحرية المطلقة في خلقها وتكوينها ، ويحددون بمحض اختيارهم مقدار الربح الذي يظنون انه يتكافأ مع جهدهم . وكانوا في حالات اخرى يشبهون بالمهاجرين الذين يعملون طوال هجرتهم بأجر معلوم محدود . ولكنهم كانوا دائماً يجدون عملاً ان لم يكن كل بمفرده ، ففي جماعات صغيرة في جوانيت متوسطة السعة . فاذا كانوا اجراء ، كان صاحب العمل الذي يأجرهم صانعاً مثلهم يقف موقفهم ويعمل عملهم . ولم تكن المؤسسات الكبيرة لتخرج عن حكم ذلك . فان « وجوود » صاحب معامل الخزف المعروفة في انجلترا وجد « شارلز داروين » المعروف ، كانا اصهر الصناع في مؤاسستهما الشهيرة (لها تتمة)